كلمة عن كتاب « القرطاس »

بقلم سعيد حجي

- 1 -

هل أنجبت العقلية المغربية من الآثار الفكرية خلال تاريخها الإسلامي ما تخلد به حياتها الماضية وتسجل به تطوراتها السياسية والاجتماعية والروحية وغيرها من نواحي الحياة التي حرصت أغلب الأمم المتمدنة على تدوينها وتتبع مظاهرها البارزة؟

طبيعي أن يكون الجواب إيجابيا، فأقل نظرة يلقيها المرء على الخزانة المغربية يجدها حافلة تنبئ عن هذا الماضي الذي كان خصبا بالرجال وبالحوادث وبالاتجاهات، خصبا في أية ناحية يتلمسها المغربي ويسعى ليتصورها ويدركها، ولكن سيظل هذا الجواب الإيجابي مفتقرا إلى دليل ملموس أمام من لم يتح له أن يلقى تلك النظرة على الخزانة المغربية، فيد المطبعة التي هى المظهر القوى للمدنية العصرية لا زالت لم تتناول ماضي المغرب فتخرجه من هذه الخزائن التي تراكمت فيها الكتب إلى يد فتية ترغب في الاستفادة، ولكن لا تعرف طريقها، فستقف أمام سؤالنا السابق حائرة واجمة، بل إن بعضها لا يتردد في الجواب عنه سلبيا.

فالعلم اليوم لم يبق استوقراطي النزعة تسعى إليه الخاصة ولا ترغب فيه العامة، بل أصبحت المعرفة حقا مشاعا، وأصبح من حق أي فرد أن يطلب منها نصيبه وليطلع على ماضي بلاده ليبدى فكرته دون أن يخشى هجمات آخرين يتصورون أن العلم انحصر في دائرتهم، ولا بد أن يقف عندها.

أصبح العلم إذن في متناول الفقير كما هو في متناول الغنى، وأصبحت أبوابه مفتوحة أمام كل قريحة وقادة، فواجب النشء الحديث أن يستعد لكشف ماضي بلاده، فالاتصال

بتاريخ المغرب ودرسه الدرس العلمي الصحيح ليس بالأمر الهين، فهو أوعر سبيلا من اكتشاف مجاهل في الصحراء المجاورة، وهم أبناء البلاد، وهم خريتوها إذا أرادوا كشف النقاب عن هذا الماضي الرائع الذي سجل التاريخ آياته المطموسة اليوم في قعر هذه المكاتب هنا بالمغرب وهناك بخزائن الغرب.

ويظهر أن نشر تلك المؤلفات التي ربما سدل العنكبوت رداءه عليها في بعض الخزائن أول واجب، يسهل البحث ويعرض ماضي المغرب أمام مقاييس النقد الحديثة فيفرك وتساقط هذا الصدا الذي ركبه بمرور السنين وتطاول الأيام. وهذا النشر هو واجب ملقى على عاتق الشباب الذي اتصل بماضي أغلب الأمم إلا ماضي بلاده، فعرف كيف سعت الطبقة المستنيرة في تلك الأمم للكشف عن ماضي بلادها، وما بذلت من مجهود في هذا السبيل فاتضح أيما اتضاح، وأزالت كل هذه الأشواك التي كانت تحول بين حاضرها وبين ماضيها فمتنت الصلة بين رجل الأمس وفتى اليوم.

فإذا سعت اليوم فئة قليلة من شباب المغرب لكى تعمل بوحي هذه الفكرة فإنما هى تقوم ببعض الواجب، وهى تأمل أن يعمل في هذا السبيل غيرها من جماعات المثقفين، وترحب بكل نقد يتفضل به المطلعون على خطواتها الأولى لتسترشد في الخطوات المقبلة.

- 2 -

اهتم أغلب القدماء سواء الشرقيون أو الغربيون بالناحية السياسية من حياة الأمم أكثر من اهتمامهم بالنواحي الأخرى، فأغلب مؤلفاتهم لا تسجل إلا الانقلابات السياسية والحروب الطاحنة والثورات الهدامة، أما ناحية المجتمع في دائرته الهادئة وتطوراته الخفية ونزعاته التي هى مصدر الانقلابات الكبرى فقلما اهتم بها القدماء ولم يعيروها الأهمية التي يقتضيها البحث الحديث والأسلوب التاريخي المعاصر. فأبرز ما يتجلى أمام البحث في

مؤلفات القدماء هذا السرد غير المعلل تعليلا تطمئن إليه النفس لما يتوالى على الأمة من قادة واضطرابات ومحن، فيقف المرء متسائلا عن خفايا هذا المد والجزر في تاريخ الأمة فلا يجد من يسعفه بجواب إلا بمحاولات تقوم بها اليوم جماعات من كبار الباحثين والمنقبين، وتلك مرحلة يعوزنا قبلها نشر مؤلفاتنا وتعميم الاستفادة منها، فليس هذا الكتاب الذي أود أن أتحدث عنه قليلا ذا بحث عميق عن توالي الملوك والأمراء وتتابع الدول على أريكة العرش المغربي، بل هو - كشأن أغلب مؤلفات القدماء - سرد لذلك يقدمه ابن أبي زرع، وله أمانة المؤرخ، وعلينا الاستفادة منها والبحث عن صحيحها من زيفها، فإنه سيأتي يوم ليناقش الباحث أقواله مناقشة علمية ليقر بفضله ويعترف بفائدته ويلاحظ ما يبديه البحث في استنتاج الحوادث وما يتضارب فيه مع غيره من المؤلفين، ولعل محرر هذه الطبعة استطاع أن يقوم بجزء من هذا الاتجاه فيما علقه في ذيل صفحات الكتاب في كثير من مواضيعه التي تحتاج إلى إيضاح أو تنبيه.

ألف ابن أبي زرع كتاب القرطاس في دولة ابن مرين تلك الدولة التي يعد عصرها من العصور الذهبية لما ازدهر فيه من حركات علمية وأدبية وفنية أثمرت وأينعت ثمرتها، ولكن ابن أبي زرع لم يكن - على ما يظهر - بالعالم المتفوق في علوم اللسان، وإنما استطاع أن يجمع كتابا من عدة كتب، فأفاد حيث أن أغلب تلك المؤلفات أصبح في حيز العدم، وجاء أسلوب كتابه يتباين في كثير من فقراته إذ تصادف الفقرة البليغة فترتاح لانسجامها، ولكن لا تسير قليلا حتى تجد الجمل التي تساهل قائلوها في تركيبها فجاءت مضطربة المبنى، قلقة التركيب، غير مرتكزة اللفظ، بعيدة عن الأسلوب الفصيح، وهو يصرح في كتابه: إن مصادره هى كتب التاريخ المعتمد على صحتها والمرجوع إليها سوى ما رواه عن أشياخ التاريخ والحفاظ والكتاب، وقيده عن الرواة الثقات والأنجاب. ومن سوء الحظ ألا يعثر على كتاب آخر له يحيلالقارئ عليه في بعض المناسبات يسميه:

« زهرة البستان في أخبار الزمان وذكر الموجود مما وقع في الوجود » يظهر أنه كان عالميا

أو بالأصح يتناول شيئا من تاريخ الممالك الإسلامية غير المغربية، ولكن من يدري فلعل هذا الكتاب المهم ملقى في زاوية من مكتبة خاصة بالمغرب حيث لا تعرف قيمته. بل إن أغلب كتب السير المغربية التي تحفل بكثير من صعاليك الرجال لا تذكر سيرة هذا المؤرخ الجليل ولا تعرف بعضها إلا أنه كان عدلا بفاس، وتختلف في اسمه، فبعضها يسميه أبا محمد صالح بن عبد الحليم الغرناطي، وبعضها بابن أبي زرع الفاسي، لسنا ندري أى الإسمين أصح، فلو ألقت كتب التراجم نورا على حياة المؤلف وترجمته لاستطعنا أن نعلل ما يتراءى لنا في الكتاب من مظاهر الإجادة حينا ومظاهر الضعف أحيانا.

- 3 -

ولكن اضطراب الأسلوب لا يحول بيننا وبين تصور قيمة الكتاب الثمينة، قيمة الكتاب التي كانت سبب شهرته في الأوساط المغربية منذ كتب إلى اليوم، وفي الأوساط الاستشراقية التي تهتم بشؤون المغرب والأندلس منذ قرنين ونصف أو أزيد، فالكتاب مادة تاريخية حافلة تستحق كل درس ، وكانت مصدر أغلب كتب تاريخ المغرب في العصور الغابرة وفي العصر الحاضر.

يبتدئ الكتاب من أول دولة إسلامية تأسست دعائمها في المغرب الأقصى، دولة الأدارسة، الذين شادوا عرش المغرب، ،فحافظت الدول التي توالت عليه وظلت ألف سنة تعتبر تلك الدول الجزء من افريقية الشمالية مصدر ارتكاز الدولة المغربية أيام امتدت سلطتها إلى حدود مصر واستولت على الأندلس أو تقلصت إلى أن أصبحت مملكة المغرب كما هى اليوم. فالمؤلف لا يتناول تاريخ المغرب عندما كان على رأسه ولى من خليفة دمشق أو بغداد، بل يشرع في تاريخ ملوك الأدارسة، ثم ينتقل إلى ملوك مغراوة وبني يفرن، ومنها يؤرخ عهد المرابطين بشىء من التفصيل، والعهد الموحدي بأكثر منه، ويختم كتابه بدولة

بني مرين، الدولة التي عاش تحت ظلالها يؤرخ عهدها بإسهاب وإيضاح.

وطريقة المؤلف ليست طريقة الحوليات كما هى طريقة أغلب المؤلفين الإسلاميين قبله، بل طريقته تاريخ الدول، فهو يبتدئ البحث من مؤسس الدولة، ويستعرض ترجمته وأسباب قيامه على الدولة التي تلاشت إلى وفاته أو خلعه أو تنازله، ثم ينتقل إلى ملوك تلك الدولة فيتكلم عن كل ملك بما يتصل به من معلومات عنه، فيستعرض أيضا ترجمته وأعماله وصفاته الخلقية ووزراءه وكتابه وقضاته وأطباءه.

ويختم الكتاب بالملك أبي سعد عثمان المريني الذي تولى الملك من سنة 710 إلى 731 هجرية وبحوادث سنة 726 هـ ، فالكتاب يتناول من تاريخ المغرب خمسة قرون ونصف.

ثم إن المؤلف لا يغفل وفيات الشخصيات المهمة التي عاشت في دولة من تلك الدول، فيعرض لترجمتها ويذكر شيئا من أعمالها أو تآليفها، ثم يأتي على الحوادث الاجتماعية التي ربما يمكننا أن نستنتج منها أسباب التطورات السياسية المهمة.

ظل كتاب القرطاس ذخيرة عند رجال التاريخ بالمغرب يعتمدون عليه في تحقيق أخبار ماضيهم وينقل بعضهم عنه إذا ألفوا شيئا في التاريخ المغربي وتدرسه جامعتهم العلمية بفاس لطلبتها. ولسنا ندري على وجه التحقيق في أي زمن اتصلت جماعات المستشرقين الأوربيين بهذا الكتاب، وكل ما نعلم أن أول ترجمة له قام بها بتس دولاكروا إلى الفرنسية ختمها تاريخ 28 نونبر 1693 ميلادية، وثاني ترجمة كانت إلى الألمانية في أواخر القرن الثامن عشر المسيحي لنمساوي يسمى Frantz von Dombou في مدينة Zograbiae وثالثها ترجمة إلى البرتغالية مع عدة تعاليق بقلم Erjoze de santo Antonio وطبعت في لشبونة سنة 1828 وترجم Conde ما يختص بالأندلس إلى الاسبانية.

وفي سنة 1834 نشر المستشرق السويدي ج. طورنبرج قسما منه، وفي سنة 1843 إلى سنة 1846 نشر ذلك العالم نصه بأجمعه مع ترجمة لاتينية وعدة تعاليق في أربعة أجزاء، وذكر

في مقدمته أنه اعتمد في إخراج طبعته وترجمتها على تسع نسخ مخطوطة لهذا الكتاب، وأنه عانى الأمرين في طبعه إذ وجد عدة فقرات لا تكاد تقرأ في تلك المخطوطات الحاوية لعدة أغلاط خصوصا في أسماء الاعلام والأشعار الواردة في نص الكتاب.

ومخطوطات الكتاب التي اعتمد عليها العالم السويدي توجد في مكاتب أوربا.

فالمخطوط الأول منها في مكتب مدينة ابسالة (السويد) نسخ بين 10 ذي القعدة وذي الحجة سنة 908 هـ ، ويقول ناسخه إنه كتبه لأحمد بن الحسن الجزولي ثم الافراني في مدينة (تنبكت) .

والمخطوط الثاني في فيسبي يسمى الكتاب بالقرطاس في عجائب فاس.

والمخطوط الثالث في مكتبة جامعة ليدن الهولاندية فرغ من نسخه في 15 شعبان 989 .

والمخطوط الرابع في المكتبة الوطنية بباريس فرغ من نسخه في يوم الخميس 7 ربيع الثاني 971 موسى بن محمد بن موسى الجماري للقائد زكريا بن أبي بكر.

والمخطوط الخامس في مكتبة خاصة بباريس.

والمخطوط السادس اختصار للكتاب كان الفراغ من نسخه يوم السبت 3 محرم سنة 775 بيد عيسى بن عبد الرحمن بن عبد المومن الحاجي.

والمخطوط السابع في مكتبة جامعة اكسفورد مكتوب على ظهره « كتاب روض القرطاس في تاريخ مدينة فاس - تلخيص الأنيس المطرب في أخبار المغرب » .

والمخطوط الثامن في اكسفورد أيضا يصف مؤلف الكتاب بقوله (يقول الفقيه الأصفى المؤرخ المتقى الأريب أبو الحسن بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي الدار والقرار) .

وفي سنة 1860 ترجمه إلى الفرنسية ترجمة جديدة Beaumier الذي كان نائبا عن خليفة قنصل فرنسا في الرباط وسلا.

أما المغرب فقد طبع على المطبعة الحجرية الفاسية أربع مرات وكتب له مقدمة في 10 صفحات أولها في سنة 1303 .